المرجعيّة القرآنيّة في ترشيد الخطاب الدّينيّ

أ. جعفر زروالي
قسم الدّكتوراه، جامعة الجزائر.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

تمهيد:

لفظ (الخطابِ) شائع في كلام العرب جارٍ على ألسنتهم دائر في حديثهم قبل الإسلام ومازال إلى اليوم، ولما نزل القرآن الكريم إيذانا بميلاد عهد جديد، نطق به أيضا، فلم يكن هناك حاجز يحول دون استساغتهم إياه وفهمِه ومواصلةِ استعماله كغيره من سائر ألفاظهم وتعابيرهم...

التّعامل المعجميّ والموسوعيّ مع المصطلح:

يتواجد لفظ (الخطاب) في المعاجم والموسوعات بصورة مألوفة كغيره من الألفاظ الجواريّة الأخرى، أو المصطلحات الفنيّة المختلفة، وسنحاول تتبّعه ضمن ذلك، للكشف عن المعاني والدّلالات الّتي يحتملها هذا اللّفظ في سياقاته المختلفة.

يقول الخليل في "العين": "الخطاب: مراجعة الكلام"(1)، والمراجعة: "تقارب ضروب الحركات في الصّوت...ورجْع الجواب: ردُّه ... والمرجوعة: جواب الرّسالة"(2) ويفهم منها المشاركة وتبادل الكلام بين طرفين، وإلى ذلك ذهب ابن منظور في "اللّسان"، وأردف لفظ الخطاب بـ" المخاطبة "(3).

أمّا في "مقاييس" ابن فارس فهو: "الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه، يخاطبه، خِطابا"(4)، ويقول الزّمخشريّ في "الأساس": "خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام"(5).

وفي "التّعريفات" يقول الجرجاني: "الخطابة هو قياس مركّب من مقدّمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقِد فيه، والغرض منها ترغيب النّاس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ " (6).

كما خصّت المعاجم الاصطلاحيّة العربيّة بنوعيها الحديثة والمعاصرة حيّزا لمصطلح الخطاب ضمن متن موادِّها اللّغويّة، حاولت من خلالها إعطاءَ تعريفٍ له أو تحديدِ مفاهيمه ودلالاته، فهو تركيب لفظيّ غايته اتّصالية تربط بين اثنين: المرسل والمتلقّي "فالخطاب (Discourse): هو ماركّب من مجموعة متناسقة من الملفوظات أو المكتوبات، لها معنى مفيدٌ، أو لها رسالة، تخضع لشفرة بين المبدع (المخاطِب) والمتلقّيّ (المخاطَب)"(7).

وبالإضافة إلى وظيفته الاتصاليّة، فهو ينبئ عن طبيعة النّصّ الأدبي وسرّ جماليته "فالخطاب هو شبكة سياقيّة معقدّةٌ، تكشف عن أدبيّة النّصّ أو شعريته"(8).

كما تناولت المعاجم الغربيّة مصطلح (Discours) بالحديث في متونها، فقد جاء في معجم الأكاديميّة الفرنسيّة قولها: "الخطاب حشْد لكلمات لتوضيح ما نفكّر فيه" (9)، ولا يبتعد "المعجم الاشتقاقي" لـ ف.ر. نوّال وم.ل.ج. كاربونتيي عن ذلك التّعريف إذ يقول بأنّه: "حشد من الكلمات للتعبير عن الأفكار"(10).

تدوير مصطلح الخطاب في القرآن الكريم:

إنّ المثلّث (خ.ط.ب) حاضر في القرآن الكريم ويدور في أشكال تصريفيّة متعدّدة وذاتِ دلالات مختلفةٍ، بين اسم وفعل ومصدر، و يأتي هذا التّدوير

وفق الموقف الخاصّ بالغرض الّتي وظّف من أجله، وحالة المخاطَبِ، وهذه الأشكال هي:

خِطْبَةِ: (وَلَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ **خِطْبَةِ** النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ) (البقرة 235)

خَطْبُكَ:(قَالَ فَمَا **خَطْبُكَ** يَا سَامِرِيُّ) (طه 95)

خَطْبُكُمَا:(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْن تَذُودَان قَالَ مَا **خَطْبُكُمَا** قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (القصص23)

خَطْبُكُمْ :(قَالَ فَمَا **خَطْبُكُمْ** أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) (الحجر57) و(الذّاريات 31)

خَطْبُكُنَّ:(قَالَ مَا **خَطْبُكُنَّ** إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (يوسف 51).

الْخِطَابِ:(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ **الْخِطَابِ**) (ص 20) (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي **الْخِطَابِ**) (ص 23).

خِطَابًا:(رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ **خِطَابًا**) (النبأ 37).

تُخَاطِبْنِي:(وَلَا**تُخَاطِبْنِي** فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ) (هود 37) و(المؤمنون 27).

خَاطَبَهُمُ:(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا **خَاطَبَهُمُ** الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان 63).

قال الرّاغب في "المفردات""الخُطبةُ تختصّ بالموعظة، الخِطبةُ بطلب المرأة (وَلَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ **خِطْبَةِ** النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ) (البقرة 235). وأصل الخِطبةِ الحالة الّتي عليها الإنسان إذا خطب نحوُ: الجِلسةِ والقِعدةِ. ويقال من الخُطبةِ: خاطِبٌ وخطِبٌ، ومن الخِطبةِ: خاطِبٌ لاغير، والفعل منهما خَطِبَ، والخَطْبُ: الأمر العظيم الّذي يكثرُ فيه التّخاطب، قال تعالى: (قَالَ فَمَا **خَطْبُكَ** يَا سَامِرِيُّ) (طه 95) (قَالَ فَمَا **خَطْبُكُمْ** أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) (الحجر57)، وفصل الخطاب: ماينفصل به الأمر من الخطاب"(11).

وقال السّبكيّ في"العروس": "المقصود منه أن يخاطبَ به غيرَ معيّنٍ إيذانا بأنّ الأمر لعظمته حقيق بأن لايخاطب به أحدٌ دون أحدٍ"(12).

وجاء في "القاموس الفقهيّ": "الخطاب: الكلام، وخطاب الله تعالى: أمره ونهيه، والخطْب: الشّأن، والأمر، صغُر أو عظُم، والخطبُ: الأمر الشّديد ينزل" (13).

وهناك من اجتهد في تحديد خصائص الخطاب ووجوهه كما هو الشّأن عند ابن قتيبة (256ه) الّذي حدّد في "تأويله" خصائص الخطاب فقال: "فالخطيب من العرب، إذا ارتجل كلاما في نكاحٍ، أو حَمَالةٍ (مايحتمله الإنسان عن غيره من ديّة أو غرامة)، أو تخصيصٍ، أو صلحٍ، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من وادٍ واحد، بل يفتنُّ: فيختصر تارة إدارة التّحفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، وكرّر تارة إرادة التّوكيد، ويخفي بعض معانيه حتّى يغمض على أكثر السّامعين، ويكشف بعضها حتّى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشّيء ويكنّي عن الشّيء..."(14).

كما ذكر الزّركشيّ(794ه) في "البرهان" والسّيوطي في"المعترك" نحو أربعين وجها للخطاب، وتحدّث عنها الإمام الشافعي(204هـ) أيضا ولم يفصّل(15).أمّا أبو الفرج الجوزي(597ه) فقد حصد لها خمسة عشر وجها (16).

وفي سياق دقيق ذهب الباقلاني(403ه) في "الإعجاز" حيث قال: "وهو أنّ الّذي ينقسم عليه الخطاب، من البسط والاختصار، والجمع والتّفريق، والاستعارة والتّصريح، والتّجوّز والتّحقيق، ونحو ذلك من الوجوه الّتي توجد في كلامهم، موجودة في القرآن. وكلّ ذلك ممّا يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة"(17)، فخصائص الخطاب العربي، حافظ عليها القرآن الكريم، فعندما سمعته العرب لم ستهجنه ولا استغربته، وإنّما أدركت أنّه معجز في لغته وأسلوبه ونظام سبكه.

ومع كلّ هذه الاجتهادات فإنّنا نصطدم بتداخل بين معاني الخطاب والخطبة فليس هناك شاسع فرق بينهما مادام أنّهما لايخرجان عن اللّسان (اللّغة)(18).

الخطاب في الدّرس النّقديّ الحديث:

مع تطوّر الدّراسات اللّسانيّة والأسلوبيّة الحديثة، أولى الدّارسون اهتماما خاصّا بالخطاب حتى صار يحتلّ الصّدارة منها، فظهرت دراسات وأبحاث تحدّثت عنه بإسهاب، فحظي بمؤلّفات ودراسات عديدة وترجمات مختلفة، أثرت المكتبة العربيّة، وأفادت الدّارسين والباحثين ونشطت إثرها مخابر البحث على اختلاف مستوياتها الجامعيّة والأكاديميّة...

لقد سبق الدّرس الأدبي والنّقدي في الغرب نظيره العربي في الاهتمام بالخطاب (ضمن قضايا اللّسانيات)، خلال النّصف الثّاني من القرن

العشرين، فبرزت عدّة أسماء وأعمال ودراسات تناولت الخطاب في إطار دراستها وأبحاثها اللّسانيّة والبنويّة والسِّميائيّة والأسلوبيّة ونظرياتِ الرّواية والسّردِ والنّصّ والقراءة والتّلقّي وغيرها، وجاءت هذه الدّراسات والأبحاث متباينة مختلفة ثريّة، تعكس طبيعة هذا الاتجاه أو تلك النّظريّة.

لقد تصدّى كبار المنهجيين في الغرب إلى مصطلح (**discours**) كما فعلوا مع غيره من المصطلحات النّصيّة المنبثقة عن الجهود اللّسانيّة الحديثة وحاولوا الوقوف عند مفهومه ودلالته في إطار الدّرس الأدبي والنّقديّ...

يذهب باختين (**1895– 1975**) في كتابه عن دوستوفسكي إلى "أنّ الخطاب يعني اللّغة المجسّدة الحيّة ذات الشّمول والاكتمال"(**19**). بينما "يرى بَنْفُنِيسْت **Benveniste** (**1902– 1976**) الخطاب بأنّه قول يفترض متكلِّما ومخاطَبا ويتضمّن رغبة الأوّل بالتّأثير في الثّاني بشكل من الأشكال... أيّ كلُّ خطابٍ يتوجّه به شخص إلى شخص آخر معبّرا عن نفسه بضمير المتكلّم"(**20**). ووفقه أيضا، فإنّ الخطاب يشكّل "مع القصّة (**Histoire**) واحدا من أجزاء النّظام اللّغوي المتكامل"(**21**).

"وإذا ذهبنا إلى رولان بارت **Barthes** (**1915– 1980**) وجدناه ينطلق من لغة السّرد ليعالج مسألة الخطاب، فينتهي إلى أنّ الجملة في اللّسانيات وحدة أخيرة في اللّغة، وهذا يعني أنّ الخطاب لايوجد إلا في الجملة؛ لأنّ الجملة هي القسم الأصغر الّذي تمثّل بجدارة كمالَ الخطاب بأسره واللّسانيات لايسعُها أن تتّخذ موضوعا أرفع من الجملة؛ لأنّ بعد الجملة ليس هناك جملٌ، لهذا من الحتميّ أن يكون الخطابُ ذاتُه منتظَما ضمن مجموعة من الجمل؛ فتغدو عبرَ هذا التّنظيمِ رسالةً تبعث بها لغة أخرى متفوّقةٌ على لغة اللّسانيين؛ لأنّ للخطاب وحداتِه، وقواعدَه، وقوانينَه، لهذا يجب أن يكون الخطابُ موضوعَ لسانيات ثانيّة..."(**22**).

"هذا وتوسّعت نظرةُ (بارت) إلى الخطاب حتّى أصبح متعةً وعشقا، فالمتعةُ طاقة فاعِلة من طاقات الخطاب"(23).

ومن جانبه لم يقف ميشال فوكو (1926- 1984) Michel Faucaut عند تعريف واحد للخطاب بل تعددّت تعاريفه، فتارة هو"مجموعة كبيرة من الأقوال والعبارات"(24)، وتارة أخرى إنّنا: "نطلق مصطلح خطاب على مجموع الملفوظات الّتي تنتمي إلى تشكيلى خطابيّة واحدة"(25). وفي موضع آخر اعتبره: "ممارسات تُصيغ الأشياء الّتي تتحدّث عنها بطريقة منظّمة"(26).

ويقول بول ريكور (1913- 2005) Paul Ricoeur "الخطاب هو الواقعة اللّغويّة"(27)، والواقعة كما هو معلوم مرتبطة بالزّمن.

تلتقي هذه المداخلات التّعريفية بغية تقريب مفهوم الخطاب في كونه حدثا لغويا في شكل جمل وأقاويل لها معنى، يقوم على ثلاثة أركان أساس يشكلّون مُرسلة، وهي: المخاطب ويقابل المرسل، والمخاطَب ويقابل المتلّقي، والخِطاب ويقبل الألقية أو المرسَلة، ويراد منه التّأثير وإقناع المتلقّي وإحداث تغيير فيه...

إضافة إلى هؤلاء الأعلام، فهناك المناهج والنّظريات الّتي كانت لها آراؤها في تحديد ماهية الخطاب، فقد عرّف اللّسانيّون مصطلح (خطاب) بأنّه: "كلّ ملفوظ أعلى من الجملة، بحيث ينظر إليه من زاوية نظر تسلسل المجموعات الجمليّة"(28).

أمّا اللّغويون البنيويون فقد تأثّروا في تعريفهم للخطاب بأراء بَنْفُنِيست، حين ميّز "بين نمطين من الرّواية، حيث يشير السّرد (Histoire) إلى الأحداث المكتملة الّتي تحرّرت في الزّمن عن المتكلّم، ويشير الخطاب (Discourse) إلى أحداث ترتبط من النّاحيّة الزّمنيّة بفعل الكلام"(29).

واعتبر السّميائيون "Discours (الخطاب) محادثة خاصّة ذات طبيعة شكليّة، تعبير شكليّ ومنسّق عن الأفكار بالكلام أو بالكتابة، يشمل تعبيرا عن الأفكار في شكل خِطبة دينيّة أو رسالة بحث...، قطعة أو وحدة من الكلام أو الكتابة (من الكلمة Discours)"(30)، واستنتج البنيويون أنّ الخطاب من وجهة نظر السّميائيين أنّه "شبكةٌ متفاعلة من المواد المتموضعة بعضُها إلى جانب البعض الآخر، بفضل علائقَ هي نفسها محلُّ تفاعل"(31).

ويرى منظِّرو الرّواية في الخطاب ذلك "القول الشّفهيّ أو الخطّيّ الّذي يُخبر عن حدث أو سلسلة أحداث، وهذا التّعريف يقرّب الخطاب من النّصّ، ويقرّبه من السّرد، وهو وضع الحكاية في النّص لنقلها إلى القارئ، ولكنّه يبعده عن الحكاية، وهي مضمون النّصّ"(32).

وإلى جانب هؤلاء، كان للفلسفة إسهام في تعريف الخطاب، حينما ربطته بعمليّة التّواصل، جاء في "أطلسُ الفلسفة": "على الفعل التّواصليّ أنْ يتمكّن من تبريرِ تدليلِه على المشروعيّة ضمن شكل الخطاب، إذْ يمثّل الخطابُ موقفا كلاميّا مثاليّا، حيث يمتلك داخلَه كلّ جزء من أجزائه إمكانيّة التّعبير دون وجود إلزاماتٍ أو معيقاتٍ خارجيّةٍ كانت أم داخليّةٍ، فالفعل التّواصلي الحقيقيُّ يمثّل في الحالة المثاليّة خطابا ناجحا، حتّى في حالة انعدام أيّة ممارسة لاتستندُ إلى أيِّ إجماع"(33).

وتوصّل الدّارسون إلى أنّ "الكلمة الفرنسيّة Discours الّتي ارتبطت منذ السّتينيات بالفكر الفلسفيّ الفرنسيّ، ولو أنها تُرادف تماما كلمة في اللّغة الإنكليزيّة Discourse لكنْ حدثَ بعد ذلك تباعدٌ بين المعنى العام للمصطلح ومعناه الفلسفي"(34).

وجاء في "موسوعة لالاند" "(Discours) خطاب، حديث، عمليّةٌ فكرية تجري من خلال سلسلة عمليّات أوليّة جزئيّة ومتتابعة. (أو) بنحو خاص، تعبير عن الفكر وتطوير له"(35).

وخلاصة القول أن أراء كثيرةً ومتعدّدةً حاولت إعطاءَ تعريف للخطاب وتحديدِ مفهومٍ جامع له، لكنّ طبيعتَه اللّغويةِ، ومهمّته التّواصليّةِ، وغايتَه الإبلاغيّةِ التّأثيريّة، وبعدَه المثاليّ الفلسفيّ، حال دون تحقيق ذلك، ويبقى الدّور على المنجز الإبداعي، هو من يعطي له القيمة الجماليّة والفنيّة الّتي لايدرك ماهيتها إلا المتلقّيّ... لأنّ الخطاب "استخدم استخداما واسعا غالبا ما يتخلّلُه الارتجالُ حتّى فقد الكثير من معناه الدّقيق"(36).

أصناف المخاطَبين في القرآن الكريم:

خلال تتبّعنا للأصناف المخاطَبة في القرآن الكريم، وقفنا على خمسة بارزة لافتة للانتباه، وهي: النّاس، الكفّار، أهل الكتب، المؤمنون، المنافقون.

فهذه الأصناف معنيّة بالدّعوة الجديدة، والّتي تقوم على ركنيين اثنين يشكّلان خطابها: التّبليغ والتّذكير.

فالأوّل يخص النّاس عموما (كفارا وأهلَ كتاب) ممّن ليس لهم علما بها حتّى يعلموها، وهو مهمّة الرّسل جميعا(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (النّحل35) وذلك بأمر من الله عزّ وجلّ (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة67).

والآخرِ يأتي ثانيا ويخصّ من بُلِّغ بها وعلمها وأتى بها (المؤمنون) (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات55)، (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف2) أو من ظهر منه ما يخلّ بها من انحراف عقدي أو تعبّدي وغيرهما، كي يصحح دينه ويستقيم (العاصي، المرتدّ، المنافق...) (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (الأعراف201) والطّائف وسوسة الشيطان أو اللّمم والمسّ أو غيره مما يصدّ عن واجب حق الله عليهم، تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده، وأبصروا الحق فعملوا به، وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم، وتركوا فيه طاعة الشيطان، ومنه قوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم5).

وهذان المصطلحان دقيقان من حيث الدّلالة اللّغويّة، وإذا كنّا قد حصرنا كلّ واحد منهما في اختصاصه، فذلك لا يمنع تبادلهما الوظائف، فيأتي التّبليغ لمن آمن (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ*إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ* وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (المائدة: 90، 91، 92) ويصلح التّذكير لمن كفر أو ارتدّ أو نافق كما في مهمّة موسى وهارون عليهما السّلام إلى فرعون (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه44)، (وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(البقرة221)...

1- عموم النّاس:

جاء القرآن الكريم لعامّة النّاس دون تمييز، كما أرسل مبلّغُه صلّى الله عليه وسلّم، لهم جميعا، وقد صرّح القرآن الكريم بذلك في آيتين: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سبأ: 28)، (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (الأعراف: 158).

فالأولى وبواسطة أسلوب القصر (نفي واستثناء) يقرّر الله عزّ وجلّ حكما قاطعا وهو أنّ محمّدا صلّى الله عليه وسلّم أرسل للناس كافّة ودون استثناء، ليبشّرهم بالخير الّذي ينجيهم من غضب الله وعذابه، وينذرهم ممّا يخالف ذلك، ويكون سببا في خسرانهم يوم الدّين.

وفي الأخيرة يأمره بنداء النّاس جميعا ودعواهم ليخبرهم أنّه رسول مبعوث ومكلّف من الله ملكِ الوجود بسمواته وأرضه، لايشاركه في ملكه أحد، يحي ويميت، وما عليهم إلا الإيمان به وبرسوله النّبيّ الأميّ الّذي يخاطبهم وقد سبقهم هو أوّلا في الإيمان بالله وكتابه، فما عليهم إلا اتّباعه لعلّهم يصيبون الهداية ويجتنبون الضّلالة...

وفي آية أخرى يخاطب الله عزّ وجل رسوله صلّى الله عليه وسلّم، مبيّنا الهدف من إرساله إلى النّاس، وأسلوب تعاملهم معهم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: 107).

وإذا درجنا على الخطاب القرآني الكريم للنّاس وجدنا تلك العاطفة والحنان والمنّة من الله عزّ وجلّ والّتي تغلّف ذلك النّداء الرّباني لعباده:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ) (يونس: 57)، فهذا الخطاب الهادئ من الله عزّ وجلّ للناس إنّما كان لمصلحتهم وفائدتهم، فهو يريد الخير والسّعادة لهم، من خلال تلك الموعظة الّتي أرسلها لهم وما فيها من شفاء وهدى ورحمة، فكلّ ذلك مليّن للقلوب مهدّئ للخواطر مُرْضٍ للنفوس.

ولكنْ وفي كثير من الأحيان–وما أكثرَها– فإنّ النّفوس قد تركن للمعصيّة، وتنزِع إلى العداء وتميل نحو الكبرياء، فتحتاج إلى أسلوب التّقريع والتّرهيب، في مشاهد مخيفة تصوّر هول ماينتظر المخالفين، كما هو الشّأن في قوله:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ*يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ)(الحج:1، 2) حين أمرهم بتقواه لأنّ هناك أمرا جللا سيقع حتما بعد حين وهو زلزلة السّاعة إيذانا بالرّحيل الأبدي نحو الآخرة، وهو مشهد رهيب لايقدر الإنسان على تحمّل تفاصيل أحداثه وحيثيات أطواره، لأنّه يختصر وفي صورة سريعة عذاب الله الشّديد.

وفي العديد من المرّات نقف عند آيات يذكّر فيها الله عزّ وجلّ عباده بنعمه الّتي أسبغها عليهم في هذه الدّنيا وكانت سببا في استمرار معيشتهم وضمانا لحياتهم، وكذا تحقيقا لراحتهم وسعادتهم يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 21، 22)، فمن حق الله على النّاس أن يعبدوه، ومن واجبهم أن يقوموا بذلك، وكي يقنعهم ويستميل عقولهم وقلوبهم، ذكّرهم بأنّه هو سبب وجودهم والّذين من

قبلهم، إذا أرادوا أن تلمَس التّقوى قلوبهم، ثمّ راح يفصّل نعمه الأخرى الّتي باشرتها حواسّهم وجوارحهم فقد افترشوا أرضه وابتنوا سماءه، وأنزل منها الماء فكان سببا فيما جنوا من ثمرات الأرض فكانت رزقا لهم، ثمّ يأمرهم بكلّ ودٍّ ورويّة أن لا يجعلوا له ندّا وهم يعلمون...

لقد تكرّر نداء النّاس بصيغة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) في مطلع 18 آية كريمة منها أربعة مسبوقة بفعل الأمر (قل)، تنوّعت أساليبها بين الأمر (06 مرّات) والتّقرير (10 مرّات) والشّرط (مرّتان)، وكلها ملاطَفة وملايَنة بغية استمالتهم إلى دين الله، والعمل بشريعته، فقد دعاهم فيها إلى تقواه وتذكّر نعمه وعبادته وأكل حلال أرضه، وذكّرهم بخلْقه إيّاهم وبافتقارهم إليه كما أنّ وعده حقّ، ونبّهم فيها إلى أنّ ماجاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حقٌّ وموعظة أيضا، مذكّرا إيّاهم بأطوار خلقهم وحياتهم وجمال صوّرهم إلى أن يوافهم الأجل...

لقد كان الخطاب من خلالها هادئا وليّنا وهو يتوجّه إلى النّاس، مخاطبا العقل ومتحدّثا برويّة إلى النّفوس، بالحجج والأمثلة والبراهين الّتي بإمكانها التّأثير في النّفوس وإحداث التّغيير الإيجابي المنشود فيها...

2- الكفّار:

هم أوّل صنف ظهرت بينهم الدّعوة الإسلاميّة وكانا الاثنان أوّلَ من تواجه بسبب اختلاف المعتقد والدّين، وقد فصل القرآن الكريم في طبيعة العلاقة بينهما فقال: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ*لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ*وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ*لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (الكافرون)، هو خطاب هادئ متّزن، نلمس من خلاله

ليونة في التّعامل مع الكفّاربادئ الأمر، وهذا الهدوء والاتّزان من شأنه أن يؤثّر في نفوسهم لعلّهم يهتدون، فقد أعطاهم الحرية فيما يعتقدون ويدينون (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وهذه السّلاسة في الخطاب قد تخفّف من حدّة التّوتر لدى الكفّار، فهم في موقع قوّة والمسلمون في حالة ضعف، فمخاطبتهم بهذا الأسلوب السّلس من شأنه أن يحدّ من بطشهم وقهرهم لهم.

ومهما يكن فخطاب الكفّار هو خطاب ذمٍّ، بسبب ماهم عليه من الكفر والشّرك وقتال المؤمنين، وليس في ذلك مايجلب لهم فخرا أو منزلة أو جاها، بل راحت منزلة الشّرف تتهاوى يوما بعد يوم، بانتشار الإسلام الّذي يحاربون وبدخول النّاس فيه أفواجا.

والدّاعية المسلم عليه أن يطمع في هداية الكافر ودخوله الإسلام (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) (الأنفال38)، فخطاب التّودّد والتّرغيب من الله عزّ وجلّ للكفّار قائم ومستمّر، فهؤلاء سيكافئهم الله عزّ وجلّ بالمغفرة وياله من جزاء، فهم عباده خلقهم وأسبغ عليهم الكثير من نعمه، فإن هم استجابوا نجحوا وأفلحوا، وإن هم تعنّتوا وتصلّبوا خابوا وخسروا في الدّنيا بالقتال وفي الآخرة بدخول جهنّم وتلك سنّة الأوّلين.

لقد بيّن الله عزّ وجلّ لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم أبجديات خطاب الكفّار، خصوصا إقامة الحجّة والدّليل، فعليه في البداية أن يسمعهم كلام الله حتّى وإن أبوا ذلك (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (فصلت26)، وأحيانا يطالبونه بآية أو علامة، كما فعل بنو إسرائيل من قبل، لكنّ هذا ليس من شأنه لأنّ مهمّته إنذارهم وتنبيههم

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد7)، ثمّ أن الهداية بيد الله عز وجلّ فهو إن شاء هدى من لان قلبه واستجاب وإن شاء أضلّ من قسا قلبه وأبى(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)(الرعد27)، وقد ينكرون عليه صفة الرّسالة جحودا ونكرانا، وذلك من طبع كفرهم أيضا (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد43) لكن الله يشهد له بالرّسالة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(الأنبياء: 107) وكفى بها شهادة، ويضاف إليها شهادةٌ من عندَهُ علم الكتاب، وهم اليهود والنّصارى.

ومطالبتهم بالآيات ليس مطلبهم الوحيد بل أضافوا إليه نكرانهم للسّاعة بهتانا وكفرا (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سبأ 3) فاستعمال أسلوب القسم جاء للتّوكيد، ونفي الخبر(لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ) في ضربه الإنكاري لإبطاله، فهم متأوّلون على الله كأنّهم يعلمون الغيب، فجاءت المؤكّدات لتنفي ماقالوا وهي: حرف الجواب (بلى)، والقسم وجوابه، ولام التّوكيد المتّصلة بالمضارع، فالسّاعة من علم غيب الله ولادخل للبشر فيه، فعقلهم أعجز من أن تحيط به، وهذه السّاعة الّتي ينكرون إتيانها فإنّ الله عزّ وجلّ يوجّه الخطاب لهم بأنّها آتية وسيحشرون إلى جهنّم (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران12)، فالخطاب هنا فيه توكيد وترهيب وتخويف لهم، فلا مفرّ من عقاب الله إن هم استمرّوا في عنادهم

وكبريائهم وجحودهم ومضايقتهم للمؤمنين، ولفظ (الكفّار) هنا وإن جاء خاصّا باليهود كما جاء في أسباب النّزول، فهو ينسحب من حيث عموم المعنى على اليهود وغيرهم ممّن كفر بالله ودينه.

لقد كان من حظّ هؤلاء أن عاصروا الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وشهدوا رسالته واستمعوا لكتابه ومع ذلك لم يستثمروا هذا الحظ لصالحهم ... وإذا كانوا يطمعون في شفاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فإنّ ذلك لن يكون (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) (التحريم 10) وهذا المثل المضروب لهم؛ إنّما جاء من سبيل التّيئيس والتّخويف والتّرهيب، فليسوا أقل شأنا من المرأتين من حيث القرابة والمصاهرة، ومع ذلك سينال الكفّار مانالهما.

فالخطاب الموجّه للكفّار كان في أغلبه من قبيل التّرهيب والتّخويف وإغلاظ القول لهم، حتّى يرتدعوا ويقلعوا عمّ هم فيه من العناد والجحود، وحربٍ على الإسلام والمسلمين، وذلك كلّه في صالحهم إن استجابوا وأذعنوا لحكم الله عزّ وجلّ.

إن دعوة الكفّار تحتاج إلى صبر وثبات وعقل رزين ولغة متّزنة وحوار جادّ مدعوم بالحجج والأدلّة والبراهين، لأنّ عقولهم أحوج ماتكون لمثل هذا حتى تستجيبَ وترضخَ لفاعلية الخطاب.

3- أهل الكتاب:

يراد بأهل الكتاب الأقوام الّذين بُعث فيهم الرّسل وأنزلت عليهم الكتب، وقد أدرك الإسلام طائفتين من هؤلاء وهم: اليهود والنّصارى،

وخبرة هؤلاء بطبيعة الدّين كبيرة، ومع ذلك تصادموا مع الدّين الجديد الّذي جاء ناسخا لشريعة دينهم وتعاليمه، وعارضوه، لأنّه أمر صعُب عليهم تقبّله والرّضا به فهم طمعوا أن يكون رسول آخر الزّمان منهم وفيهم، خصوصا اليهود، إلا القليل منهم ممن طابت نفسه ودخل في الدّين الجديد.

لقد خاطب الله عزّ وجلّ أهل الكتاب بهذه الصّفة: (قل يا أهل الكتاب) و(يا أهل الكتاب) ستّ مرات بالتّساوي، وهو نداء احترام وتقدير لهم، لأنّهم حُظُوا بما لم تحظ به أمم قبلهم من رسل وكتب، فالنّداء نداء تشريف ومهابة وفي الوقت نفسه تذكير لهم بضرورة الوقوف إلى جانب الدّين الجديد الّذي نسخ دينهم الّذي هم عليه ومع ما أصابه من تحريف حوّله من كونه دينا سماويّا مقدّسا إلى مجرد تعاليم وتشريعات على هوى البشر تعبث بمصير الأتباع وتستغلّ عواطفهم...

بيّن الخطاب القرآنيّ آداب وطرائق التّعامل مع أهل الكتاب فقال: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (العنكبوت46)، فهذا الجدال الهادئ الرّزين قد يمكّنهم من اعتناق الدّين الجديد خصوصا أنّه تضمّن أمر المسلمين بالإيمان بما أنزل على هؤلاء بل واعتبره شرطا لصحّة الإيمان، فقد كان في ذلك تطييب للنّفس وتهدئة البال والخاطر، فالجميع من أهل الكتاب...

وغير بعيد عن ذلك يأمر الله عزّ وجلّ في خطابه المسلمين إلى دعوة أهل الكتاب للاتّفاق على مبادئ أساس تجمع بينهم(قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ*يَاأَهْلَ

الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (آل عمران64، 65)، فالمبدأ هنا هو العقيدة، أساس كل دين صحيح: إفراد الله عزّ وجلّ وحده بالعبادة، عدم الإشراك به، وإخلاص الرّبوبيّة لله وحده... فإن خالفوكم في ذلك فأشهدوهم بإسلامكم.

وينتقل الخطاب القرآني وفي نوع من النّبرة الحادّة واللّوم والعتاب وربّما التّوبيخ بحديثه إلى أهل الكتاب بردّ ادّعائهم أنّ إبراهيم كان يهوديا أو ربّما نصرانيا مع أنّه سبقهم في الظّهور، طارحا عليهم سؤالا تقريريا فيه توبيخ لهم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

إنّهم بهذا السّلوك المتعمّد قد دخلوا في صفّ الكفر وأصحابه (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ*يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (آل عمران70، 71) إنّ اللّوم من خلال هذا الخطاب تحوّل إلى توبيخ وتأنيب شديد، فكيف لقوم مثل هؤلاء يُنعتون بأهل الكتاب، يكفرون بدين الله، ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحقّ رغم أنّهم على علم بذلك كلّه... بل تجاوزوا كلَّ حدودِ العقل والآداب حين أقر الخطاب القرآنيّ بانحرافهم البائن (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ* قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (آل عمران:98، 99)، فبالإضافة إلى كفرهم هاهم يصدّون المؤمنين عن سبيل الله عاملين بضلالتهم على اعوجاج وزيْغ وتحريف شرْع الله وسبيله المستقيم... لكن الله حذّرهم في نوع من التّخويف بأنّه شهيد على ما يعملون وأنّه ليس بغافل عن ذلك.

لقد عمِل الخطاب القرآني في الكثير من المرّات على تصحيح العقيدة الشّركيّة للنّصارى الّتي هم واقعون فيها منذ أمدٍ إلا القليلُ منهم من استجاب وطابت نفسه لذلك (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء171) فقد ألّهُوا نبيّهم، وعقيدة التّثليث أعمت قلوبهم وأبصارهم، فهم في ضلالتهم يعمهون، فجاء القرآن الكريم ليصحح نظَرهم ويهدي قلوبهم، موجّها إليهم نصيحة بأسلوب النّهي، بعدم الغلو في الدّين، وبأسلوب الحصر (إنّما) بيّن لهم الخطاب القرآني حقيقة عيسى عليه السّلام، ناهيا إيّاهم في نوع من الزّجر والإلزام بالاقلاع عن هذا الاعتقاد التّثليثيّ الباطل الفاسد، فالله تنزّه عن الولد، وإليه يعود ملْك كلّ شيء في الوجود.

ويبدو أنّ أهل الكتاب قد بالغوا في هذا الغلوّ، فزاغوا واتبعوا سبيل الضلالة (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)(المائدة77) فيوجّه إليهم القرآن الكريم نداء نهي بعدم الغلوّ واتّباع الضّالين الّذين خرجوا عن طريق الهداية وولجُوا سبيل الغواية والضّلال...

لقد أقام القرآن الكريم الحجّة عليهم حين ادّعوا بأنّه لم يأتهم من يبشّرهم وينذرهم(يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(المائدة19) لقد بعث الله رسوله صلّى الله عليه وسلّم

للنّاس كافة وأهل الكتاب(خاصّة اليهود) ليبشر وينذر، فادّعاءُهم باطل ومردود عليهم، لقد أنكر اليهود بعْث رسولٍ بعد موسى عليه السّلام، وإنزال كتاب بعد التّوراة، رغم علمهم بكل ذلك، كما هو ثابت في كتبهم.

ويواصل القرآن الكريم تذكيره لأهل الكتاب بأنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل رسوله إليهم (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (المائدة15) فهذا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّذي كفروا به، سيخبرهم بما يخفونه عن النّاس من الكتاب خصوصا التّشريع منه.

ويبدو أنّ أهل الكتاب قد استلذّوا واقعهم وماهم عليه من الكفر والمعصية والتّنكّر لدين الله، واستطابوه (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)(المائدة68) وإنّما فعلوا ذلك طغيانا وكفرا وتكذيبا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، الّذي يبدو وأنّه حزن لحالهم وأسِيَ على واقعهم، فنهاه الله على ذلك، مذكّرا إيّاه بأنّ ذلك السّلوك الصّادر عنهم فهو خلُق معهود فيهم اتّجاه أنبيائهم ورسلهم من قبل.

وخطاب اللّوم مازال متواصلا لأهل الكتاب على مواقفهم المعادية للمسلمين، كرههم إياهم واستهزائهم بهم وبدينهم (قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) (المائدة59)، فهؤلاء المؤمنون آمنوا بكتب الله جميعِها وبرسله

وصدّقوا بكلّ ذلك، لكنّكم أنتم ضللتم وعميت أبصاركم وأكثركم قد فسق وخالف دين الله وخرج عن طاعته وراح يكذب عليه.

وأمام هذا الموقف يتوجّه القرآن بالخطاب إلى المسلمين قائلا: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ)(آل عمران110)، فلو آمن هؤلاء لكانوا أمثالكم لكن أكثرهم قد فسقوا وانحرفوا، فالله يمرّر رسالة ترغيب وتحبيب وإغراء من خلال خطاب المسلمين إلى أهل الكتاب عسى أن يكونوا أمثالهم فيفلحوا خير لهم...

ويبدو أنّ عنادهم وكبرياءهم قد سيطر على عقولهم وقلوبهم، فأعمى أبصارهم وبصائرهم، فضيّعوا بذلك فرصة كبيرة ينالون بها جزاءً أوفر عند الله عزّ وجلّ، لو أنّهم آمنوا بالله وبكتابه ورسوله، (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(المائدة65).

والخطاب هنا خطاب تنديم وأسًى، حيث لاينفع هذا ولا ذاك، عندما يرون عاقبة تنكّرهم واستكبارهم على دين الله برسالته ورسوله وكتابه.

ويعلمنا الخطاب القرآني في موضع آخر أنّ هناك فئةً من أهل الكتاب آمنت بالله وبالقرآن الكريم وبما أنزل إليهم (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران199) فقد طمأنهم الله عزّ وجلّ بأجر لا يعلمه إلا هو، وفي هذا الإخبار ترغيب لغيرهم بأن يحذوا حذوهم، فينالون مانالوا عند الله عزّ وجلّ.

فهذه الفئة منهم يعوّل عليها فيما بعد في دعوة وإقناع أصحابهم بالإيمان بالله وبكتابه ورسوله.

4-المنافقون:

هذا الصّنف جديد مستحدث عرفه المجتمع الإسلامي بالمدينة المنوّرة بعد هجرة المسلمين إليها هربا من بطش كفّار قريش بهم بمكّة المكرّمة، وقد فرضت وجوده ظروف مختلفة ومجتمعة أملتها المصالح العديدة. وسمي المنافق بذلك لأنه يجعل لنفسهِ وجهين يظهر أحدهما حسب الموقف الذي يواجهه، والنّفاق نوعان: عقديّ وعمليّ:

أمّا الأوّل فهو ماتعلّق بالعقيدة أي الإيمان، وهو النفاق الأكبر الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا مُخرج من الإسلام وصاحبه مهدّد بالخلود في الدّرك الأسفل من النّار كما قال تعالى (إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً)(النساء 145)، وهم يعتقدون أنهم بسلوكهم هذا يخادعون الله، ولكن هم عكس ذلك ويقول تعالى: (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ)(البقرة 9) وممن اشتهر بالنّفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

أمّا الصّنف الآخر فهو النّفاق العملي ويعرف بالنّفاق الأصغر، وهو عمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، وهذا لا يخرج صاحبهُ من الإسلام، وهو يكون فيه إيمان ونفاق وإذا كثر صار بسببه منافقاً خالصاً. لقول النبي صلّ الله عليه وسلّم :(أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر). فمن

اجتمعت فيه هذه الخصال كان منافقا خالصا، ومن كانت فيهِ واحدة منها صار فيه خصلة منه.

فهذا الصّنف خطر أكيد على الدّين وعلى المجتمع، ويصعب كشفه مالم يُظهر صاحبه علامات صريحة بذلك، فليس من السّهل أيضا أن يُكتشف المنافقون ويُعرفون، كما أنّه ليس من السّهل نعت النّاس بالنّفاق، فقد يُحدث ذلك -لو وقع- فتنة لا تحمد عقباها، فإذا كانت صفاتهم معروفة مثل: الخداع، والإفساد، والاستهزاء، والحلف كذبا، وموالاة الكفّار ونصرتهم، وخذل المؤمنين وتهوينُهم، والتآمر، وعدم الاحتكام إلى شرع الله، والطعن في النّوايا الحسنة... فإنّه على المتصدّين للدّعوة أن يتسلّحوا بالفطنة والذّكاء في محاربة هذا الخلل وتصحيح هذا الاعوجاج...

لم يغفل القرآن الكريم عن هذا الصّنف من البشر ولم يقصهم من دعوته، فهناك العديد من الآيات ترسم طرائق مخاطبة المنافقين لتذكيرهم وتحذيرهم وترهيبهم وترغيبهم للعودة إلى جادّة الصّواب، بلغة مناسبة وحوار هادئ وحجّة بالغة مقنعة، لكنْ قبل ذلك لابدّ من معرفة نواياهم (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(المنافقون1) فشهادتهم شهادة كذب، وقولهم ذاك ماهو إلا استهزاء واستهتار وقلة أدب وحياء، ولكن لو صدقت شهادتهم فما بهم حين هذا الموقف: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)(النساء61) وبهذا التّصرف ثبتت فعلا قلّة أدبهم وحيائهم، فذهبت شهادتهم مع صدودهم، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ)(الأنفال49)، فهذا شأنهم وشأن مريض القلب، الاستهزاء بالمؤمنين واستصغار شأن دينهم الّذي ارتضاه الله لهم.

إنّ ادّعاءهم التّديّن ماهو إلا بهتان وكذب وإخلاف للوعد وخيانة عهد الله (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)(آل عمران167)، لكنّ الله عزّ وجلّ عليم بهم وبأخلاقهم السّيّئة، قادر على كشف مافي قلوبهم وفضحهم بقرآن منزّل وأمام الملأ وهو فاعل ذلك بهم لامحالة لذا تجدهم في حذر وترقّب(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)(التوبة 64).

وبسبب هذه المواقف المخزيّة، والأخلاق السّيئة والنّفوس المريضة قال تعالى مخاطبا نبيّه فيهم ومطالبا إياه بترديد خطابه: (بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (النساء138) وهو خطاب استهزاء كما كانوا هم يستهزئون، فالبشارة في الواقع لا تكون إلا فيما هو مفرح من خبر أو نبأ...

ومن لطف الله بعباده وحرصه على حبّ الخير لهم، هاهو يرغب المنافقين بالتّوبة وليعودوا إلى رشدهم، وينضمُّوا إلى صفّ المؤمنين بجانب رسوله –صلّى الله عليه وسلّم– (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (الأحزاب24).

إنّ التّلاعب الظّاهر من هذا الصّنف، يقتضي نوعا من الخطاب الصّارم الحادّ، حتى يذعن هؤلاء للحقّ، وهو خطاب يقوم على فضح سلوكهم وكشف أسرار قلوبهم المريضة، بغية مداواتها وعلاجها وتقويم اعوجاجها...

5- المؤمنون:

إنّ مخاطبة هؤلاء بصفة الإيمان هو خطاب مدح وتشريف وتمييز لهم من حيث التّديّن عمّن سواهم من الأصناف البشريّة الأخرى، وهذا التّشريف لا يغنيهم عن مهمّة التّكليف المنوطة بهم وهي نشر دين الله عزّ وجلّ والتّذكير به.

إنّ المؤمنين يشكّلون مشروع داعية إلى الله، لهذا يحرص القرآن الكريم على تكوينهم وتعليمهم وتربيتهم حتى يكونوا مهيئين لحمل رسالة الدّعوة، ومن أجل ذلك فقد وجدنا الخطاب القرآني ينحى هذا الاتّجاه، حيث:

يحرص على سلامة إيمانهم من آيّة شائبة: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران102) (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة119)

ويدعوهم إلى التزام عباداتهم والحفاظ عليها والإتيان بها على أحسن وجه: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْوَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(المائدة6)، (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)(إبراهيم31)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(البقرة183)،(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)(البقرة264).

ويحثّهم على التّحلي بالأخلاق الفاضلة: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)(النساء135) (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(النّور27)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(النّور58)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات6)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ*يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)(الحجرات11، 12) (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(المجادلة9).

ويبيّن لهم آدابهم اتّجاه رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (56الأحزاب) (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)(الحجرات:1،2)

ويأمرهم بتطبيق شرعه: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران130) (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء59).

ويبيّن لهم طرائق معاملة غيرهم من الكتابيين أو الكفّار: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)(آل عمران100)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)(آل عمران149)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)(النساء144)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)(آل عمران118)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (الممتحنة1).

ويدلّهم على مقتضيات الجهاد وآداب القتال في سبيله: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(آل عمران200)،

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا)(النساء71)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء94)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)(الأنفال15)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)(التوبة38)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)(التوبة123).

ويرشدهم إلى الصّالح من الأعمال في دنياهم: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(البقرة 172)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)(النساء 29).

ويحذرهم من كلّ مايفسد علاقتهم بالله عزّ وجلّ ونبيّه صلّى الله عليه وسلّم: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(النّور21)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)(الأحزاب 69)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(المنافقون9)، (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ

أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)(التوبة38)، (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)(التّحريم6).

إنّها قواعد لتجسيد مشروع جليل وهو تحقيق خلافة الله في أرضه بواسطة هذا الصّنف من عباده، فقد تنوّع دستور هذا المشروع بين العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات، فجاء الخطاب وفق ذلك، ليجد الاستجابة الحقيقية لديهم... فإن هم التزموه، فإنّ الله عزّ وجل يبشرهم بالفوز الكبير والفلاح في الآخرة: (وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(البقرة25).

النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتوظيفُه للمرجعيّة القرآنيّة:

منذ أنّ كلّف صلى الله عليه وسلّم بتبليغ الدّعوة، كان القرآن الكريم بنصوصه المتنوّعة، أهّم وسيلة يدعم بها خطابه الدّعويّ لمن كانت بينه وبينهم اتّصالات، وقد تنوّع هذا الخطاب بين خطبة مباشرة، أو رسالة، أو حديث إلى أصحابه.

فمثال الأوّل: في خطبة حجّة الوداع، الّتي وظّف فيها آيات من كتاب الله عزّ وجلّ،حين قال: (أيّها النّاس فإنّ الشّيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنّه إن يطَع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقّرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أيّها الناس(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ

يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ)(سورة التوبة37))، وقوله: (إنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرض و(إِنَ عِدّةَ الشّهورِ عند اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً)(سورة التوبة36) منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان) وقوله: أَيهَا النّاسُ(إنّما المُؤمِنُونَ إخْوةٌ)(الحجرات 10) فَلاَ يَحِلُّ لامرئ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ) كُلكُّمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات 13) وليس لعربيّ فَضْلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقْوىَ) وغيرها من الخطب.

ومثال الثّاني: ففي رسالته إلى النّجاشي ملك الحبشة يقول: (من محمّد رسول الإسلام إلى النّجاشى ملك الحبشة : سلام عليك إنى أحمد الله إليك (الله الّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ)(الحشر 23)، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطّيبة الحصينة فحملت بـعيسى فخلقه الله من روحه كما خلق آدم بيده وإنّى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى).

وعندما راسل هرقل الرّوم، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم ويؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و(يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(آل عمران 64)). والمضمون نفسه جاء في رسالته إلى المقوقس عظيم أقباط مصر بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، وأما

بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط و(يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(آل عمران 64)).

وكذلك في خطابه لملك الفرس: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر (مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)(يس 70) فأسلم تسلم، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس.

فهذه الرّسائل اعتمدت المرجعيّة القرآنية في مخاطبة زعماء ذلك العصر، بما يتماشى وعقيدتهم ومنزلتهم وعلاقتهم بأقوامهم، ولاشك أنّ مقل هذا التّوظيف يلفت الانتباه ويشدّ إليه العقول، لما يحتويه من اتّجاه جديد في الدّين والاعتقاد.

ومثال الأخير: جاء في حديث معاذ بن جبل: (...ثم قال: ألا أدلّك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النّار وصلاة الرجل من جوف اللّيل قال: ثم تلا: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (السّجدة 16)).

وقد سار الصّحابة على هذا الخطّ مستفيدين من طريقته صلّى الله عليه وسلّم في نشر الدّعوة وتبليغها للنّاس، وإصلاح شأنهم وتذكيرهم بها، ومثالها فيما روي أنّ عمر افتقد رجلاً من أهل الشّام كان يحضر مجلسه، فقال

للصّحابة: ما فعل فلان بن فلان؟ قالوا يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشّراب فلم نره منذ أيام، فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب (من عمر بن الخطاب، إلى فلان بن فلان، سلامٌ عليك، أما بعد: فإنّي أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو(غَافِرِ الذّنبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِير)(غافر3) ثم قال لأصحابه: أدعو الله لأخيكم أن يقبل على الله بقلبه، ويتوب الله عليه. فلما وصله كتابُ عمر، جعل يقرأه ويردده في نفسه، ويقول: (غَافِرِ الذّنبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) قد حذرني عقوبته، ووعدني مغفرته، فلم يزل يرددها على نفسه وهو يبكي، ثم نزع فأحسن النّزع (تاب وحسنت توبته) فلما بلغ عمر خبره قال لأصحابه: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة، فسدِّدوه ووثّقوه وادْعُوا الله له أنْ يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.(37).

والشّواهد كثيرة في ذلك، وهي تزخر بذلك النّظام الدّقيق، في تتبّع أساليب القرآن الكريم، ومنهجه القويم في مخاطبة البشر، فالله خلقهم وهو أعلم بنفوسهم، وعلى ذلك قامت حجّته، ونطقت مرجعيته.

الخلاصة:

الخطاب الدّعوي الدّينيّ خطاب تواصليّ له خصوصيّة دينيّة بحتة، يعتمد قنوات الاتّصال المعهودة: (مخاطِب أو المرسل، المخاطَب أو المتلقّي ووجود أُلقية أي الرّسالة)، وغاية هذا الخطاب هو التّبليغ والتّذكير، واستمالة المخاطَبين والتّأثير في نفوسهم قصد إقناعهم ومن ثمّ إحداث تغيير إيجابيّ فيها.

والخطاب الدّيني كغيره من المكوّنات النّصيّة قابل للتجديد والتّماشي مع متطلبات العصر، وهذا التّجديد لا يتنافى والثّوابت الّتي قام عليها أوّل مرّة، وهذا يقتضي وجود هيئات أو مؤسّسات تعمل على تكوين (الخطابيين) الّذين يتوجّهون إلى النّاس قصد تبليغهم أو تذكيرهم.

إن الخطاب الدّينيّ لابد أن يخرج من إطار احتكار الفرد إلى فسحة الجماعة، خصوصا إذا علمنا أنّ الخطاب القرآني توجّه بأمر الدّعوة إلى خطاب الجماعة، وبالتّالي فإنّ ذلك يقتضي العودة إلى القرآن الكريم باعتباره مرجعا تشريعيّا ودعويّا يتضمّن أحكاما وتوجيهات وضوابط لابد أنّ تفهم وتوضّح لكلّ من يتصدّى لخطاب الدّعوة، حتى يحقّق مبتغاه المرجو منه.

كما أنّ هذا الخطاب، يختلف من حيث المنطلق أو الوسيلة، مع الخطابات الدّينيّة الأخرى في اليهوديّة أو المسيحيّة فهذه قد أوجدت لنفسها صراعا مع السّلطة والمجتمع بمختلف طبقاته من أصحاب الفكر والسّياسة والاجتماع والمال وغيرها من المصالح، فظهرت فكرة فصل الدّين عن الدّولة (اللائيكيّة) ممّا جعلها حبيسة ديرها وكنائسها، بخلاف الخطاب الدّعوي الإسلامي الدّي هو وفي الأصل موجّه للمجتمع، وباعتبار أصناف المخاطَبين الّذين أتينا على ذكرهم سلفا، فالإسلام دين حيّ وغايته إحياء

النّفوس وإيقاظها من سباتها وغفلتها(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (سورة الأنفال24).

فمن أبرز خصائص الخطاب الدّيني:

-المعرفة الجيّدة لنفسيّة المخاطَب لتجنّب ردّة فعله أو معرفة كيفية التّعامل معها.

- انتقاء المعجم اللّغويّ المناسب للمخاطَب والموقف والظّرف.

- اعتماد الاحتجاج للتّأثير في المتلقّي.

- احترام الخصوصيّة الدّينيَّة للمخاطب، ومراعاة طبيعة اعتقاده ويقينه.

- الإيجاز والاختصار لتفادي الملل، وللحفاظ على تركيز المتلقي؛ بعدم شرود ذهنه.

- توظيف الجماليات البلاغيّة الّتي هي في الأصل من خصوصيات اللّغة العربيّة.

- توظيف الأسلوب الإنشائي: النّداء والنّهي والاستفهام.

- اعتماد الأنماط الخطابيّة المناسبة: الحجاج، الوصف، الإخبار، الإيعاز، الإرشاد.

فماذا لو جرّب الدّعاة في خطاباتهم، هذه الأساليب في تعاملهم مع هذه الأصناف فربّما أفلحوا أكثر في نشر دعوة الله، وهداية الكثير من بني البشر للدّخول في دين الله أفواجا، ورجوع الكثيرين إلى حضنه وجادّة طريقه المستقيم برفق ورويّة...؟ فكم نحن في حاجة إلى إتقان فنّي تبليغ الدّعوة والتّذكير بها وفق مرجعيّة دعويّة مستقيمة سليمة من الشّوائب... فمن الضروريّ الّذي لايقبل التّنازل، الاستئناسُ بالمرجعيّة القرآنيّة في مخاطبة

المتلقّين حسب أصنافهم، والالتفات إلى المرجعيّة النّبويّة للاستفادة منها في ذلك، أليس الخطاب وفق هذه المرجعيّة كلمة يتجاذبها في الواقع الضربان (الطّيبة والخبث): (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ*تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ*وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (إبراهيم: 24، 25، 26)، فلْيزن الدّعاة خطاباتهم بميزان هذه القاعدة التّمثيليّة الرّائعة، ومن ثمّ يوجهونه الوجهة السّليمة الصّحيحة الّتي أتينا على ذكر معالمها سابقا.

الهوامش:

(1) العين الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2003، 1424، ج:1، ص: 419

(2) المرجع نفسه، ج:2، ص: 101.

(3) لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، دار بيروت، 1388، 1968، م1، ص: 361.

(4) مقاييس اللّغة: ابن فارس، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل بيروت، م2، ص: 198

(5) أساس البلاغة: الزّمخشري، دار بيروت للطّباعة والنّشر، 1404، 1984، ص: 167.

(6) التّعريفات: علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بروت، ط1، 1405، ص: 134.

(7) معجم النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد محي الدّين مينو، دائرة الثّقافة والإعلام، الشّارقة، ط1، 2012، ص: 132.

(8) المرجع نفسه، ص: 132.

(9)Dictionnaire de l'académie Française, 5e "édition– 1798 ; édition ebooksFrance. P :999.

(10)Dictionnaire étymologique, critique, historique, anecdotique et littéraire, fr.Noel, et M.L.J.Carpentier, librairie le normant, paris, 1839, tomme 1, p, 372.

(11) المفردات في غريب القرآن: الرّاغب الأصفهاني، مكتبة نزار نصطفى الباز، ج1، ص: 200.

(12) المعجم المفصّل في علوم البلاغة: إنعام فوّال عكّاوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1417، 1969، ص: 566.

(13) القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحا، سعدي أبو حبيب، دار الفكر، دمشق، ط2، 1408، 1988، ص: 118.

(14) تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، شرح: السّيّد أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط3،1401،1981،ص: 13.

(15) ينظر: المعجم المفصّل في علوم البلاغة: إنعام عكّاوي، مرجع سابق: ص: 562.

(16) ينظر: المدهش، أبو الفرج الجوزي، تحقيق: مروان قبّاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط:2، 1985، ص: 15.

(17) إعجاز القرآن: الباقلاني، تحقيق: السّيّد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط:3، ص: 42.

(18) ينظر: الشّامل معجم في علوم اللّغة العربيّة ومصطلاحاتها، محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي، دار العودة، بيروت، ط1، 1981، ص: 479.

(19) المصطلحات الأدبيّة الحديثة: محمّد عنّاني، الشركة المصريّة العالميّة –لونجمان، ط3، 2003، ص: 21.

(20) معجم مصطلحات نقد الرّواية: لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، دار النّهار للنّشر، ط1، 2002ص: 88.

(21) المصطلح السّردي: جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثّقافة، 2003، ط1، 62.

(22) معجم السّميائيات: فيصل الأحمر، الدّار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431، 2010، ص: 161.

(23) المرجع نفسه، ص: 161.

(24) المصطلحات الأدبيّة الحديثة: محمّد عنّاني، مرجع سابق، ص:20.

(25) المصطلحات المفاتيح لتحيل الخطاب: دومينيك مونغونو، ترجمة: محمّد يحياتن الدّار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428، 2008، ص: 40.

(26) معجم السّميائيات، مرجع سابق: ص: 161.

(27) نظرية التّأويل الخطاب وفائض المعنى: بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البضاء، المغرب، ط2، 2006، ص: 12.

(28) معجم السّميائيات: فيصل الأحمر، مرجع سابق،ص: 164، وينظر أيضا: معجم مصطلحات نقد الرّواية: لطيف زيتوني، مرجع سابق، ص: 89.

(29) مفاتيح اصطلاحيّة جديدة، طوني بينيث، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، 2010، ص: 322.

(30) معجم السّميائيات: فيصل الأحمر، مرجع سابق، ص: 157،

(31) المرجع نفسه، ص: 164.

(32) معجم مصطلحات نقد الرّواية: لطيف زيتوني، مرجع سابق، ص: 89.

(33) أطلس الفلسفة: بيتر كونزمان، فرانز بيتر بوركارد، فرانز فيدمان، أكسل فايس، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقيّة، لبنان، ط2، 2007، ص: 233.

(34) معجم السِّميائيات: فيصل الأحمر، مرجع سابق، ص: 158.

(35) موسوعة لالاند الفلسفيّة: أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2001، ص: 287.

(36) مفاتيح اصطلاحيّة جديدة: طوني بينيث، مرجع سابق، ص: 235.

(37) مختصر تفسير ابن كثير: محمّد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم، بيروت 1402ه، 1981، ط7، م3، ص: 234.

المراجع:

1- أساس البلاغة: الزّمخشري، دار بيروت للطّباعة والنّشر، 1404، 1984.

2- أطلس الفلسفة: بيتر كونزمان، فرانز بيتر بوركارد، فرانز فيدمان، أكسل فايس، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقيّة، لبنان، ط2، 2007

3- إعجاز القرآن: الباقلاني، تحقيق: السّيّد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط:3.

4- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة، شرح: السّيّد أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط3، 1401، 1981.

5- التّعريفات: علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بروت، ط1، 1405.

6- الشّامل معجم في علوم اللّغة العربيّة ومصطلاحاتها، محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي، دار العودة، بيروت، ط1، 1981.

7- العين الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2003، 1424، ج:1.
8- القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحا، سعدي أبو حبيب، دار الفكر، دمشق، ط2، 1408.
9- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، دار بيروت، 1388، 1968، م1.
10- مختصر تفسير ابن كثير: محمّد علي الصّابوني، دار القرآن الكريم، بيروت 1402ه، 1981، ط7، م3.
11- المدهش: أبو الفرج الجوزي، تحقيق: مروان قبّاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط:2، 1985.
12- معجم النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد محي الدّين مينو، دائرة الثّقافة والإعلام، الشّارقة، ط1، 2012.
13- المصطلح السّردي: جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثّقافة، 2003، ط1
14- المصطلحات الأدبيّة الحديثة: محمّد عنّاني، الشركة المصريّة العالميّة – لونجمان، ط3، 2003.
15- المصطلحات المفاتيح لتحيل الخطاب: دومينيك مونغونو، ترجمة: محمّد يحياتن الدّار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428، 2008
16- معجم السّميائيات: فيصل الأحمر، الدّار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431، 2010.
17- معجم مصطلحات نقد الرّواية: لطيف زيتوني، مكتبة لبنان، دار النّهار للنّشر، ط1، 2002
18- المعجم المفصّل في علوم البلاغة: إنعام فوّال عكّاوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1417، 1969.
19- مفاتيح اصطلاحيّة جديدة، طوني بينيث، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، 2010
20- المفردات في غريب القرآن: الرّاغب الأصفهاني، مكتبة نزار نصطفى الباز، ج1
21- مقاييس اللّغة: ابن فارس، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل بيروت، م2.

22- وسوعة لالاند الفلسفيّة: أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2001.
23- نظرية التّأويل الخطاب وفائض المعنى: بول ريكور، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البضاء، المغرب، ط2، 2006.

مراجع أجنبيّة:

1- Dictionnaire de l'académie Française, 5e " édition- 1798 ; édition ebooksFrance.
2- Dictionnaire étymologique, critique, historique, anecdotique et littéraire, fr.Noel, et M.L.J.Carpentier, librairie le normant, paris, 1839, tomme 1